أ.د. حياة ناصر الحجى

المنطلقات الحضارية فى سلطنة المماليك

٦٤٨-٩٢٢هـ / ١٢٥٠-١٥١٦م

إن فاعلية الحياة فى حكم السلاطين المماليك كانت ظاهرة مشتركة بين الحكام المماليك المسلمين وبين عامة الناس فى مصر والشام، حيث ارتكز هيكل البناء فيها على ثلاث زوايا متساوية حددت قواعد العمل الحضارى فى سلطنة المماليك وهى الجهاد الإسلامى، والإبداع العلمى ، ونظام الوقف.

وقد تفاعل العمل المستمر المشترك بين المماليك وعامة الناس فى هذه المسارات الثلاثة دون تفضيل ، أو تمييز أو تعدٍّ . ففى «الجهاد الإسلامى» شكل المماليك العسكر الرسمى الذى حقق الانتصارات العظيمة ضد المغول فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م، وفى شقحب سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢ م ليسجل تاريخ بلاد الشام صفحة رائعة فى انتصارات المسلمين على الأعداء الطامعين فى البلاد. وكذلك يذهب الفضل فى هذه الانتصارات الحاسمة أيضًا لعامة الناس من المتطوعة المصريين والشاميين، الذين بذلوا الأرواح ، حيث لم يملكوا الأموال، فى سبيل الإسلام والأرض والعرض.

وقاد الفقهاء والعلماء المسلمون راية الجهاد فى توحيد صفوف هؤلاء المتطوعة من أهل البلاد ، فكان ابن دقيق العيد فى عين جالوت ، وأحمد ابن تيمية فى شقحب على رأس المتطوعة من عامة الناس المصريين والشاميين من كافة المدن والضواحى. وهكذا يرجع الفضل فى هذه الانتصارات الإسلامية ضد المغول للمماليك كما هو لأهل البلاد فى مصر والشام .

---

* استاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب- جامعة الكويت .

ولم يقتصر الجهاد الإسلامى بين المماليك وأهل البلاد على مواجهة المغول فى أكثر من أربعة حروب كبيرة فى القرون السابع والثامن والتاسع الهجرية/ الثالث عشر ، والرابع عشر، والخامس عشر الميلادية، حيث إن هذا الجهاد الإسلامى المشترك شمل كذلك هدف التخلص من الاحتلال الصليبى فى مدن ساحل الشام، فأحرز الفرسان المماليك والمتطوعة المصريين والشاميين أجمل الانتصارات الحربية الإسلامية ضد الصليبيين فى عهد الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨-٦٧٦هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م) عندما حقق تحرير إنطاكية من قبضة الصليبيين لتعود مرة أخرى إسلامية التاريخ والحضارة. ثم تولى السلطان المنصور قلاون (٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٨٠-١٢٩٠م) ليسجل بقيادته أروع صفحات الجهاد الإسلامى فى هزيمة الصليبيين، وطردهم من المرقب وطرابلس وعندما تولى السلطنة الأشرف خليل بن قلاون (٦٨٩-٦٩٣هـ / ١٢٩٠-١٢٩٤م) توج هذا الجهاد الإسلامى العظيم فى فتح عكا، آخر معقل صليبى فى بلاد الشام، سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م.

وأخيرا جاء الناصر محمد بن قلاون فى فترة حكمه الثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ / ١٣٠٩-١٣٤٠م) ليطهر جزيرة أرواد فى البحر الأبيض المتوسط من القراصنة الصليبيين الاسبتارية ليضمن حماية السواحل المصرية والشامية من اعتداءاتهم الوحشية المتكررة، ولتبدأ فى عهده مرحلة الازدهار الاقتصادى، والعلاقات الدبلوماسية ، والتفوق العلمى ، والعطاء الوقفى، والرخاء المعيشى ، والتقدم العمرانى . وهكذا ازدهر المجتمع الإسلامى فى مصر والشام فى ظل حكم السلاطين المماليك فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين .

أما فى محور «الإبداع العلمى» فإن ذخائر المكتبات العالمية والعربية من مصادر مخطوطة ومطبوعة وموسوعات، وقواميس دونت فى عصر المماليك فى مصر والشام دليل واضح وقاطع على دور هؤلاء فى مجال الإبداع الفكرى. فكما كان النويرى فى موسوعة «نهاية الأرب فى فنون الأدب»، والمقريزى فى حولية «السلوك لمعرفة دول الملوك»، والقلقشندى فى موسوعة «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا»، وابن حجر العسقلانى فى تراجم «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة»، والسخاوى فى تراجم «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» وغيرهم كثيرون يمثلون نخبة الإبداع العلمى لأهل مصر وبلاد الشام، كذلك كان ابن تغرى بردى فى «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»، وابن إياس فى «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» ، وابن أيبك الدوادارى فى «كنز الدرر وجامع الغرر» يمثلون نخبة الإبداع العلمى للمماليك.

لقد كتب هؤلاء المؤرخون المماليك الذين عرفوا فى ذلك العصر باسم «أولاد الناس» الحوليات الطويلة، والمؤرخات الموثقة فى تاريخ الدولة الإسلامية فى مصر والشام والحجاز. وكانوا حريصين على إبراز كافة الجوانب الحضارية فى المجتمع ، مفضلين الاشتغال بهذه الأعمال الخالدة بالقلم دون السيف . لقد وثق هؤلاء تاريخ هذه البقاع التاريخية من منطق الدين الإسلامى الذى احتضن عقولهم ، وملك أرواحهم ، وقوى عزائمهم ، وتوج أهدافهم ، فاجتهدوا فى تجسيد انتمائهم الكلى للإسلام عقيدة وحضارة . كما كان هؤلاء المؤرخون من أخيار الكتاب المسلمين تدوينا وعرضا وتحليلا. وهذا البذل العلمى المشترك عند المصريين والشاميين والمماليك يؤكد عمق الوازع الإسلامى فى هذه الأرض على مدى حقبة زمنية طويلة زادت عن قرنين ونصف قرن .

أما الركيزة الثالثة فى هذه النظرية التى تنطلق من مفهوم الانصهار الإسلامى بين المماليك وأهل البلاد فهى «نظام الوقف» أو عطاء الخير الذى بذل فيه غالبية السلاطين والأمراء المماليك الأموال الطائلة لإنشاء الجوامع والمساجد، والبيمارستانات ، والمدارس، والخانقاوات ، والزوايا، والأربطة ، ودور السبيل لتربية الأيتام ، إلى جانب منشآت السقاية والرواية فى كافة أنحاء الأقاليم .

ومن ناحية أخرى كان للأغنياء من المصريين والشاميين دور كبير فى إنشاء الكثير من هذه المنشآت الدينية، والعلمية، والاجتماعية ، فعمل الجميع من أجل تشييد ودعم هذه المؤسسات الخيرية خدمة لعامة الناس، ولاتزال هذه المنشآت الوقفية العظيمة شاهداً حياً وبرهاناً خالداً على هذا البذل المادى الكبير فى مصر وبلاد الشام. لقد خصص المماليك وأغنياء مصر والشام الأموال الطائلة لهذا النشاط الدينى والتعليمى والاجتماعى ، فجاءت هذه المؤسسات الوقفية آيات فنية رائعة فى مضمار العمارة الإسلامية ، والعطاء العلمى، والعمل الخيرى، وكان المستفيد الأول من هذه المؤسسات الوقفية عامة الناس فى مصر وبلاد الشام.

وهكذا كان «الإسلام» هو القاسم المشترك بين المماليك على شتى طوائفهم، وأعراقهم ، ولغاتهم ، وثقافاتهم ، كما كان بوتقة انصهار بين المماليك وأهالى البلاد فى مصر والشام. لقد كان المماليك مسلمين بكل ما تعنيه هذه الصفة من عطاء لاحدود له تطبيقا لمبادئ الإسلام وأخلاقه . وبهذا تظل أعمال «الجهاد الإسلامى، والإبداع العلمى ونظام الوقف» وثيقة خالدة تتضمن جميع الإنجازات المملوكية والمصرية الشامية المشتركة لتصبح سلطنة المماليك إسلامية

فى تحويل مبادئ العقيدة إلى أعمال خالدة، وأهداف إنسانية وثقها المعاصرون، ويصبح المماليك والمصريون والشاميون إخوة تجمعهم رابطة الإسلام. وبهذه الرابطة شكلوا بنيانا شامخا برزت آثاره فى أعمال كبيرة خلدها التاريخ، وسجلتها الوثائق والحجج الشرعية، وأبرزتها مداخل المنشآت الوقفية التى لا حصر لها فى مصر والشام والتى لاتزال موجودة حتى يومنا هذا شاهدا حيا على نوبان كل الاختلافات فى بوتقة الإسلام.

لقد كانت مصر والشام فى عصر سلاطين المماليك إسلامية عقيدة ومنهاج حياة، وكان الحكام المماليك وعامة الناس المصريون والشاميون مسلمين روحا وسلوكا ، وكان الهدف المشترك هو خدمة الإسلام جهادا وتعميرا . كما كان التوق للشهادة فى سبيل الله تعالى والإسلام هدفا مأمولا سعى له المماليك، وتسابق إليه عامة الناس، فكانت دولة إسلامية، وحكاما مسلمين ، وشعوبا إسلامية جمعت بينهم العقيدة السمحاء كلمة وعملا ومقصدا .

وهكذا تبرز لنا المعرفة التاريخية الموثقة فى حيثيات صفحات الجهاد الإسلامى، والدروس المستقاة من مواجهات الانتصار والهزيمة لتدعم جذع الارتباط بالأرض، وتكون هذه المعرفة درعا واقيا لدرء أخطار المستقبل ، وإدراك أهمية الارتكاز على عاملى العقيدة والعلم فى أى بناء حضارى إنسانى على مر العصور .

أما فى محور الإبداع العلمى فإن الثقافة المعرفية تظهر فى إطار الإدراك العقلى الواعى لما وراء الحوادث، والربط بين الوقائع ، والقدرة على فهم الأسباب المباشرة وغير المباشرة لكل ما يحدث، بل ما يمكن أن يترتب على الحادثة من نتائج إيجابية وسلبية، وظواهر تبرز عبر فترات الزمن . بل إن القدرة على استيعاب الإبداع العلمى فى التاريخ الإسلامى تشكل عاملا حيويا مهما فى فهم كافة مجريات الأمور التلقائية والمخطط لها . وحيث إن مجالات الإبداع العلمى فى التاريخ الإسلامى واسعة، وشاملة ومتشعبة ، فإنه يستحيل على إنسان واحد الإلمام بها مهما ملك من قدرات عقلية وجسمانية . وبالتالى تبقى عملية الإلمام بجزء معين من مجالات الإبداع العلمى مهمة ضمن مسئوليات من يملكون قدرة البحث والاستقصاء فى مجريات حوادث العصر ومداخلاته، وعليه تظهر إلى النور تلك الإنجازات الإنسانية الكبيرة التى تمت فى عصر المماليك. ومن المؤكد أن مثل هذا العمل البحثى يعتبر قاعدة علمية أساسية تحرص عليها الدول ذات الاهتمامات العلمية.

وقد أظهرت ثمار فعالية هذه العوامل المؤسسية لقيام سلطنة المماليك فى الصور الحضارية التى شهدها المجتمع الإسلامى فى ظل حكم المماليك. وتأتى المدارس على رأس هذه العطاءات الحضارية، وقد كانت فى عمارتها وعلومها حضارية بديعة لهذه الحقبة التاريخية.

ويعود تاريخ إنشاء المدارس فى مصر بالتحديد الدقيق إلى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، حيث بنى لكل من الطائفتين الشافعية والحنفية مدرسة بمدينة مصر[١] . ومن ثم بدأت قافلة التعليم تسير بعدد ضئيل من المدارس، وينضم إلى القافلة بين فترة وأخرى مدرسة وثانية، إلى أن أصبح بمصر مع بداية حكم السلاطين المماليك عدد كبير من المدارس، فغدت مصر مركزا حضاريا للعلم ونشر التعليم ، ولا أدل على ذلك التفوق والتقدم فى مجال الحياة العلمية والتعليمية من أن الكائم من طوائف التكرور[٢] لما وصلوا إلى مصر سنة «بضع وأربعين وستمائة»[٣] قاصدين الحج دفعوا للقاضى علم الدين بن رشيق مالا بنى به مدرسة للمالكية ، وهى بخط حمام الريش . ولما انتهى بناؤها درس بها القاضى ابن رشيق فعرفت باسمه وصار لها فى بلاد التكرور سرحة عظيمة ، وكانوا يرسلون لها الأموال فى أغلب السنين[٤].

ولاشك فى أن طوائف التكرور أدهشها ما كان فى مصر فى ذلك الحين، من المدارس العديدة، فأرادوا المشاركة فى بناء هذا الصرح التعليمى بالإسهام فى بناء مدرسة لتدريس الدين الإسلامى وما يتفرع منه من علوم مختلفة .

ويذكر القلقشندى ارتباط عدد من السلاطين المماليك بعدد من المدارس التى ازدهر بها العصر المملوكى، فقد بنى الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية ، وأنشأ المنصور قلاون المدرسة المنصورية، وشيد الناصر محمد المدرسة الناصرية [٥]، وأسس الناصر حسن بن الناصر محمد مدرسته العظمى ، كما أقام ابن أخيه الأشرف شعبان بن حسين المدرسة الأشرفية ، وبنى الظاهر برقوق مدرسته الظاهرية [٦]، «وفى خلال ذلك ابتنى أكابر الأمراء وغيرهم من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها » [٧]. وبمقارنة قول القلقشندى هذا بما سبق أن ذكره عن المدارس أيام الدولة الفاطمية ثم الدولة الأيوبية[٨] يتضح لنا تمام الوضوح أن العصر المملوكى كان بحق العصر الذهبى فى انتشار التعليم نتيجة هذا الإقبال الكبير على إنشاء المدارس، والذى اشترك فيه السلاطين والأمراء والأغنياء على حد سواء ، حتى كثرت المدارس وتعددت بشكل كبير لفت أنظار مؤرخى العصر المملوكى فسجلت أقلامهم هذه الميزة الفريدة التى امتاز بها العصر المملوكى.

ولاشك أن الهدف الأساسى من وراء سياسة الإكثار من المدارس أيام حكم سلاطين المماليك هو خدمة الدين الإسلامى وما يتفرع عنه من مختلف العلوم العقائدية والتشريعية. وقد

كان وجود العلماء والفقهاء والقضاة فى مصر فى العصر المملوكى بأعداد كبيرة ، مع تعمق فى مختلف الدراسات العقائدية والاجتماعية عاملا مشجعا لأصحاب السلطة ، ومحبى العلم والتعليم ، والمقتدرين لإنشاء المدارس على مختلف أنواعها، وقد كان من نتيجة ذلك تلك العلاقة الوثيقة والرابطة القوية بين الحكام المماليك من ناحية، وبين طبقة العلماء والفقهاء والقضاة والمتعلمين من ناحية أخرى ، وليس هناك ما هو أكثر فعالية من هذه الرابطة القوية بين هذين الطرفين المتناقضين لإقناع الشعب بمختلف فئاته وطبقاته على تقبل الوضع السياسى والرضا بحكم المماليك الدخلاء . بالإضافة إلى ذلك أمعن مؤسسوا هذه المدارس فى الصرف على بنائها ، وتوفير الأساتذة الأكفاء ، وما يلزم من مواد وأدوات لتدريس مختلف العلوم العقائدية والأدبية والعلمية، ولكن رغم تباينها عن مدارس الدولة الأيوبية فى الفخامة العمرانية والتقدم العلمى إلا أن كل هذه المدارس تتفق فى المظاهر المشتركة والأهداف الواحدة، من ذلك أن جميع ما أنشىء من مدارس أيام الدولة الأيوبية وفى العهد المملوكى كان يعتمد فى الصرف عليه على نظام الوقف الذى كان يمثل مصدرا شرعيا ثابتا للصرف والإنفاق على هذه المدارس(٩).

وبفضل نظام الوقف استطاعت خمس وسبعون مدرسة أن تؤدى وظائفها التعليمية بانتظام فى القرن الخامس عشر . وكان المدرسون فى هذه المدارس يختارون بعناية كبيرة، ويتم تعيينهم من قبل السلطان(١٠).

وقد كان جميع مؤسسى هذه المدارس من السلاطين والوزراء والأمراء والأغنياء والعلماء المقتدرين ، ومن ثم كانت لديهم الإمكانات الاقتصادية الوفيرة لوقف مختلف الأنواع من الأملاك والعقارات وغير ذلك من الأجزاء ومن جملة ما يوقف على هذه المدارس عدد كبير من القرى(١١)، والضياع (١٢)، والنواحى (١٣)، والحمامات (١٤)، والفنادق (١٥)، والحوانيت (١٦)، والأملاك (١٧)، والأراضى (١٨).

أما عن أوقاف المدرسة الناصرية فيذكر النويرى أنه حين «حصل الشروع فى عمارتها، وعين له من الأملاك السلطانية ما يوقف عليها، وكان المعين لذلك قاضى القضاة زين الدين المالكى ، وهو يومئذ ناظر الأملاك السلطانية، التى ورثها السلطان عن والده وإخوانه والمبتاعة من أجر أملاكه، وكانت أجرتها فى كل شهر بالقاهرة وظواهرها خاصة تزيد على ثمانية عشر ألف درهم . ولما عزم السلطان على الحركة إلى الشام للقاء غازان وضربه عند طروقه الشام، وقف القبة والمدرسة، ووقف على مصالحهما من أملاكه ما يذكر، وذلك فى الثانى والعشرين من ذى الحجة سنة ثمان وتسعين وستمائة قبل استقلاله ركابه الشريف إلى الشام بيومين»(١٩).

ثم أخذ النويرى بعد ذلك يعدد ما تم وقفه على المدرسة الناصرية من قيساريات وقاعات وحوانيت وحمامات وخانات وغير ذلك من المبانى ، وكلها تدر الإيجارات الوفيرة ، حيث يستغل كل ذلك للصرف على تعمير المدرسة ومرتبات أرباب الوظائف الدينية، والتعليمية، والخدمات المختلفة (٢٠). وكان جملة ما تدره هذه الأوقاف ريعا ثابتا للمدرسة الناصرية يزيد على (٨٤٠٢) درهم فى السنة (٢١). كما يشير المقريزى إلى أوقاف المدرسة الناصرية بقوله : «ووقف على هذه المدرسة قيسارية أمير على بخط الشرابشين من القاهرة، والربع الذى يعلوها وكان يعرف بالدهيشة ، ووقف عليها أيضا حوانيت بخط باب الزهومة من القاهرة ، ودار الطعم خارج مدينة دمشق»(٢٢).

لم يقتصر حبس الأوقاف على المدارس وقبابها عند الانتهاء من البناء فقط، بل كان يعمل على زيادة الأوقاف فى فترات لاحقة ، كما كان جائزا أن تتم هذه الزيادة فى الأوقاف على يد شخص آخر غير الواقف الأصلى، من ذلك أن الأشرف خليل بعد أن تولى زمام الحكم بعد وفاة والده المنصور قلاون أوقف فى شعبان سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م على القبة المنصورية التى بناها والده بين القصرين من قرى عكا الكابرة وتل الميشوح وكردانة، ومن ساحل صور معركة وصريفين . وأوقف على المدرسة الأشرفية بجوار السيدة نفيسة قرية الفرح من عكا، وقرية شعر عمر وقرية الحمراء، ومن ساحل صور قرية طبرينة(٢٣).

وكان بعض الفضلاء يوقفون الأوقاف الجليلة على مدارس وجوامع لاتنسب إليهم، فصاحب حماة إسماعيل بن على الأيوبى المعروف بالملك المؤيد عماد الدين أبى الفداء، كان له وقف على جامع ابن طولون وهو خان كامل بحوانيته فى دمشق، وسبق أن ذكرنا أن جامع ابن طولون كان مخصصا فيه مكانا للدرس له وظيفة المدرسة (٢٤). ويؤكد المقريزى فى مواقع متفرقة من كتابه المواعظ والاعتبار على أن الأوقاف كانت العمود الفقرى لذلك الهيكل التعليمى القائم على تلك المدارس الكثيرة، وبدون ذلك الريع الثابت الشرعى الذى تدره الأوقاف لايمكن لأى مدرسة أن تمارس وظائفها، أو تحقق الهدف الذى تم تشييدها من أجله. وقد شهد العصر المملوكى إنشاء ثلاث مدارس تجمدت فيها الحياة التعليمية بسبب عدم توفر ذلك الشريان الاقتصادى(٢٥) . ومن ريع الأوقاف هذا كان يصرف فى بعض الأحيان للفقهاء المقيمين فى المدرسة معلوم يعيشون منه (٢٦)، وكان هذا المعلوم هو مصدر الرزق الوحيد لبعض الفقهاء، ومن ناحية أخرى كان هو السبب الوحيد أحيانا لبقاء هذه المدارس وعدم وصول الخراب إليها(٢٧).

كما كان يصرف من ريع الوقف هذا مرتبات للطلبة [٢٨]، كل هذا يؤكد أن الأوقاف كانت هى القلب الذى يعمل على استمرار الحياة التعليمية فى هذه المدارس بانتظام ودون تغيير، وبدونها تصبح هذه الأماكن خرابا لا منفعة من ورائها، ففى المدرسة الناصرية كان واجب على الناظر أن «يصرف لكل واحد من المدرسين ولمعيديه وطلبته والداعى عنده والنقيب فى كل شهر من شهور الأهلة ألف درهم نقرة، ومن ذلك ما يختص به المدرس عن التدريس مائتى درهم، والمعيدون والطلبة والداعى والنقيب ما يراه من التسوية والتفضيل » [٢٩]، ويلاحظ أن المرتبات التى تصرف للطلبة الدارسين على أيدى فقهاء المذاهب الإسلامية الأربعة تختلف من طائفة إلى طائفة ، كما كانت قيمة هذه المرتبات من أسباب جذب الطلبة نحو أحد المذاهب دون غيره، مثال ذلك ما يذكره المقريزى أنه فى «سنة سبع وستين وسبعمائة جدد الأمير يلبغا العمرى الخاصكي درسا بجامع ابن طولون فيه سبعة مدرسين للحنفية ، وقرر لكل فقيه من الطلبة فى الشهر أربعين درهما وإردب قمح فانتقل جماعة من الشافعية إلى مذهب الحنفية[٣٠].

إلى جانب ما كان يحصل عليه أرباب الوظائف من مرتبات منتظمة كانت توزع عليهم الخيرات المختلفة فى المناسبات الدينية حيث يقتطع ذلك من ريع الأوقاف كما جاء فى وصف المدرسة الحجازية : «وجعلت على هذه الجهات عدة أوقاف جليلة يصرف منها لأرباب الوظائف المعاليم السنية، وكان يفرق فيهم كل سنة أيام عيد الفطر الكعك والخشكنانك، وفى عيد الأضحى اللحم، وفى شهر رمضان يطبخ لهم الطعام» [٣١]. أما فى المدرسة الناصرية فإنه «جعل للناظر أيضا أن يصرف من ريع الوقف إذا فضل عن المرتب المعين فيه، فى ليالى الجمع والأعياد والمواسم وشهر رمضان ، ما يراه فى التوسعة عليهم، فإن تعذر الصرف لجهة من الجهات عاد الصرف إلى ما فيها، فإن تعذر صرف ذلك للفقراء والمساكين من المسلمين أينما كانوا وحيثما وجدوا »[٣٢].

وبذلت بعض المدارس عناية كبيرة لتوفير بيوت لسكنى الطلبة فالمقريزى فى كلامه عن المدرسة الصاحبية البهائية يصف التشاحن والتنافس بين الطلبة بهدف الفوز بالسكن فى أحد بيوتها التى أعدتها لإقامة الطلبة، بل ويقبل الطالب منهم مشاركة آخرين فى نفس البيت ، ولعل فى هذا كناية لما وفرته هذه البيوت الداخلية من راحة ورفاهية للطلاب لكى يتمكنوا من مواصلة دراستهم براحة نفسية، مطمئنين إلى أماكن إيوائهم واستقرارهم «وكانت من أجلّ مدارس الدنيا، وأعظم مدرسة بمصر يتنافس الناس من طلبة العلم فى النزول بها، ويتشاحنون فى سكنى بيوتها حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة»[٣٣].

أما المدرسة الظاهرية التي أنشأها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م فقد كان للناس فى سكناها رغبة عظيمة ويتنافسون فيها تنافسا يرتفعون فيه إلى الحكام» (٣٤)، وهذا دليل على جودة المساكن التى توفرها المدارس للطلبة .

يستفاد من ذلك كله أنه وجدت فى هذه المدارس مساكن للطلبة والمدرسين ليعيشوا فيها، وتكون المقر الدائم لإقامتهم حتى ينهون دراستهم، إلى جانب ما كان يصرف لهم من مرتبات يتعيشون منها. وقد عمرت هذه المدارس بالمدرسين والمعيدين والطلبة والمباشرين والفراشين ، إلى جانب وجود إمام ومؤذن لإقامة الصلوات الخمس، وقد كان لكل هؤلاء الرواتب الثابتة(٣٥).

بالإضافة إلى ما كانت تؤديه هذه المدارس من وظائف علمية وتعليمية، فإنها كانت تستخدم أيضا لإقامة الشعائر الدينية، وإقامة الصلوات الخمس، أى أماكن للعبادة ومراكز للوعظ والإرشاد التهذيبى (٣٦)، ويستدل على ذلك من قول المقريزى فى كلامه عن المدرسة الصالحية: «فلما كان فى يوم الجمعة حادى عشر من ربيع الأول سنة ثلاثين وسبعمائة رتب الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك جمال الدين الفزاوى خطيبا بإيوان الشافعية من هذه المدرسة، وجعل له فى كل شهر خمسين درهما، ووقف عليه وعلى مؤذنين وقفا جاريا فاستمرت الخطبة هناك إلى يومنا هذا »(٣٧). كما أشار الناصر محمد فى وصية الوقف الخاصة بالمدرسة الناصرية إلى ضرورة وجود الأئمة والمؤذنين والقراء لإقامة الصلوات الخمس، فقد جاء فى شروط وصية الوقف : «وجعل للناظر أن يرتب بالقبة المذكورة إماما يؤم المسلمين فى الصلوات الخمس ، ويفعل ما يفعله الأئمة على ما يراه الناظر من المذاهب، ويؤدى إليه اجتهاده ، ويصرف له فى كل شهر بالحلال ثمانين درهما أو ما يقوم مقامها »(٣٨)، واشترط على الناظر أن يرتب بالقبة شيخا لإقراء الحديث النبوى ، ويصرف له من ريع الوقف فى كل شهر ثلاثين درهما نقرة، ويرتب بالمدرسة من القراء الحافظين لكتاب الله العزيز خمسة وعشرين نفرا، ويصرف لهم فى كل شهر خمسمائة درهم . ومن المؤذنين ثمانية فى القبة والمدرسة لإعلان الأذان وإقامة الصلوات والتسبيح، ويصرف للاثنين الرئيسيين فى كل شهر مائتى درهم وثلاثين درهما نقرة، ويصرف للستة الباقين فى كل شهر مائة درهم وخمسين درهما (٣٩). وكان الحصول على منصب فى أحد المدارس هدف الكثيرين من القضاة ورجال الدولة، فيشتد التنافس والخلاف بينهم طمعاً فى هذه المناصب المدرسية ، سواء التدريس أو النظر أو الإشراف فإن وفق أحدهم فى الحصول على إحدى الوظائف اجتهد فى جعلها وراثية لأبنائه من بعده ، ثم أحفاده وذريتهم ، أى يتم ربطها بشخصيات إحدى الأسر، وهذا

الاحتكار الوظيفى الأسرى يظهر واضحا فى كتاب وقف المدرسة الناصرية ، فحين رتب قاضى القضاة زين الدين المالكى كتاب الوقف هذا «جعل النظر فيه على الوقف والمدرسة والقبة لنفسه أيام حياته، ثم من بعده للأرشد فالأرشد من أولاده وأولادهم وذريتهم ، ثم من بعدهم لقاضى القضاة المالكى، وشرط أيضا التدريس فى إيوان المالكية لنفسه ولأولاده من بعده،. وكتب الكتاب ووقع الإشهاد على السلطان فيه لذلك »(٤٠).

وعلى ذلك يمكن أن نسأل إلى أى حد استطاع القاضى زين الدين أن ينجح فى تنفيذ تخطيطه هذا ومواجهة تيار التنافس الوظيفى الذى اتسم به العصر المملوكى تشير الحوادث إلى أن شهاب الدين أحمد بن عبادة تضايق من تدبير قاضى القضاة زين الدين المالكى وانفراده وأولاده بوظيفتى النظر والتدريس، وكان قد سبق أن ناشد القاضى زين الدين أن يجعله مشرفا على تنفيذ وصية شروط الوقف فلم يمكنه من ذلك ، لذلك كله عمل شهاب الدين أحمد على تغيير كتاب الوقف، وأخذ يغرى الناصر محمد بأن يجعل وظيفة النظر لعتيقه الطواشى شجاع الدين عنبر اللالا بدلا من قاضى القضاة زين الدين، وما زال يلح عليه حتى نجح فى إقناعه ، وأوكلت وظيفة النظر إلى الطواشى شجاع الدين «وجعل له أن يتناول من ريع الوقف المذكور فى كل شهر ثلاثمائة درهم نقرة مدة حياته، وجعل لمن يؤول النظر إليه بعده فى كل شهر مائتى درهم، وابطل الكتاب الأول وثبت الكتاب الثانى» (٤١).

ويوضح هذا مدى أثر التطلعات الشخصية والتيارات الفردية فى تولية المناصب دون النظر إلى عواقب ذلك ونتائجه على المصلحة العامة، وقد حدث ذلك مع وظيفة النظر إذ يبدو أن من تولاها لم يكن كفئا للقيام بأعباء هذا المنصب، وأهملت شروط الواقف حيث «حصل الخروج فيها عن شرط واقفها فى كثير من أموالها، وأحصر المرتب عن شرط الواقف مع توفر المال وزيادة عن كفاية الشروط . وإنما ظهر ذلك عند وفاة ناظرها الطواشى شجاع الدين فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة وظهور كتاب الوقف ولعل الناظر المذكور لم يفعل ذلك عن علم واطلاع على الشروط، وإنما فعله عن إغفال وإهمال وجهل وعدم احتفال بإمعان النظر فيما أسند إليه ، واعتمد فيه عليه»(٤٢).

وهذا يؤكد ما سبق مناقشته من حدوث العواقب الوخيمة فى حالة عدم وجود الشخصية المناسبة فى المنصب الحساس، حيث أهملت شروط الواقف، وبالتالى تضرر أرباب الوظائف من القضاة والعلماء والفقهاء والأعيان والمدرسين وغيرهم، «فلما أسند النظر إلى أهله ، وانتهى إلى من يتحرى الصواب فى قوله وفعله، أجرى الأمور فيها على شرط واقفها ، وصرف

أموالها فى وجوه مصارفها ، وما عدل عن شرط الواقف ولاخرج: ولا اعتمد ما يترتب عليه فيه إذا خرج»(٤٣).

كذلك كان من غير المستحب أن يعمل السلطان على منع الناظر من تنفيذ شروط الواقف، حيث إن بقاء الناظر فى وظيفة النظر كان مرتبطا بتقييده بشروط وصية الواقف . بالإضافة إلى أنه كان من المتعارف عليه بيع هذه الوظائف من قبل أصحاب الاستحقاق ، مثلما تم بيع وظيفة مشيخة الحديث فى الكاملية بمبلغ ستين دنيارا ، دون أدنى اهتمام بأن يعهد بها لمن تؤهله علومه للقيام بالتزاماتها ومسئولياتها فى التهذيب والتعليم. وتذكر المصادر المملوكية أنه كان يحدث فى بعض الأحيان أن يقوم المدرس بوظيفة النظر فى أوقاف المدرسة إلى جانب قيامه بوظيفة التدريس، من ذلك ما حدث فى المدرسة الناصرية بالقرافة حيث «رتب بها مدرساً يدرس الفقه على مذهب الشافعى، وجعل له فى كل شهر من المعلوم عند التدريس أربعين ديناراً. وعن معلوم النظر فى أوقاف المدرسة عشرة دنانير، ورتب له من الخبز فى كل يوم ستين رطلاً بالمصرى ، وراويتين من ماء النيل»(٤٤).

ومن ناحية أخرى يظهر واضحاً فى نسخة توقيع بتدريس المدرسة الصلاحية الناصرية كتب لقاضى القضاة تقى الدين ابن قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز- إن هذه الوظيفة توكل لمن تؤهله أخلاقه وسمعته وعلمه للقيام بمسئولية هذا المنصب، حيث يتم تعيينه بأمر سلطانى لينشر علمه بين طلاب المعرفة ويكون ذلك قدوة لعلماء عصره(٤٥).

وإذا حدث وتنامى إلى سمع السلطان فشل المدرس الذى عينه فى القيام بأعباء مسئولياته كاملة، فإنه يتم إحضار هذ المدرس بين يدى السلطان للتحقيق فى الأمر(٤٦). وكان المدرس يقوم بتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف وغير ذلك ، ويأتى من بعده المعيد الذى يعيد ما سبق أن شرحه المدرس، لكى يفهمه الطلبه (٤٧). وكان لزاماً على المدرس أن يعامل الطلبة وكأنهم أبناؤه (٤٨).

ويلاحظ ارتباط هذه المدارس بالمذاهب الإسلامية الأربعة فيختص بعضها للفقهاء الشافعية، وبعضها للفقهاء المالكية، وبعضها للحنفية (٤٩). وفى بعض الأحيان يكون فى مدرسة واحدة درس للطائفة الشافعية ، ودرس للطائفة الحنفية (٥٠). كما وجدت مدارس بها دروسًا أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة، مثلما وجد فى المدرسة الناصرية من تدريس المذاهب الأربعة على يد كبار الفقهاء ومعهم المعيدون والطلاب كل مجموعة فى إيوان، المالكية فى الإيوان القبلى،

والشافعية فى الإيوان البحرى، والحنفية فى الإيوان الشرقى، والحنابلة فى الإيوان الغربى ، ويراعى تحديد عدد المعيدين والطلبة حسب أوامر الناظر (٥١). وعنيت بعض المدارس بتدريس علم الطب مثل المدرسة المنصورية (٥٢). ووجد من أهل الدين والعلم من إذا بنى مدرسة، وانتهى منها، ووقف عليها الأوقاف الجليلة ، باشر التدريس بها بنفسه (٥٣)، فالشيخ هبة الله ابن على بن السديد الإسنائى مجد الدين (ت سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م) تولى التدريس فى مدرسته التى أنشأها فى بلده إسنا ووقف عليها بساتينه، وكان يعمل للطلبة فيها طعاما طيبا(٥٤). وإلى جانب ما كانت تؤديه بعض المدارس من منافع تتفق مع كونها عبادة ودرس، كانت تقوم أيضا بوظيفة الخانقاة ، حيث تصبح مقرا لإيواء الصوفية ، وممارسة وظيفة التصوف «واستضافة الواردين من الفقراء (٥٥). فالمدرسة المهمندارية التى بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزى المهمندار ونقيب الجيوش فى سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م «جعلها مدرسة وخانقاة» (٥٦)، والمدرسة الجمالية التى بناها الأمير الوزير علاء الدين مغلطاى الجمالى سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م « جعلها مدرسة للحنفية وخانقاة للصوفية»(٥٧).

واحتوى عدد من المدارس على مكاتب سبيل تقام بجانبها معونة للأيتام والمحتاجين ، حيث يكون هدفها تعليم أيتام المسلمين ، وتجرى لهم الجرايات والكسوة (٥٨). وعادة تلحق مكاتب السبيل هذه إما بالمدارس، أو بالمساجد، أو غير ذلك من المؤسسات الدينية والتعليمية. وقد يكون السبب فى عدم قيام مراكز تعليم اليتامى هذه مستقلة بذاتها هو الخوف من اندثارها وسرعة وصول الخراب إليها، ولذا كانت تلحق بهذه المؤسسات الكبيرة القادرة على تمويلها وإمدادها بالمدرسين والطعام والكتب، وغير ذلك مما تحتاجه لتواصل مسيرتها فى تعليم الأيتام وحسن توجيههم . فالمدرسة الحجازية مثلا قد أقيم بجوارها مكتب للسبيل يضم عددا من أيتام المسلمين(٥٩)، مع مؤدب يعلمهم القرآن الكريم، ويوزع عليهم فى كل يوم لكل واحد منهم خمسة أرغفة من الخبز، ومبلغ من المال، بالإضافة إلى كسوتى الشتاء والصيف(٦٠).

وقد اجتهد على أن يتوفر فى هذه المدارس مؤدب أطفال تكون مهمته توجيه وتعليم الأطفال اليتامى فى مكاتب السبيل (٦١). وكان بعض الخيرين يبنى مكتبا للأيتام قائما بذاته دون أن يلحقه بمدرسة ، من ذلك أن محمد بن الصاحب (ت سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م) «بنى مكتبا بالقرافة ، وشرط فى كتاب وقفه أن ألواح الصبيان إذا غسلت يصب على قبره»(٦٢) وقد يكون السبب وراء بناء هذا المكتب مستقلا بذاته هو عدم توفر المال لبناء مؤسسة كبيرة يلحق بها، فاكتفى الواقف بإنشاء هذا المكتب لتعليم الأيتام طلبا للثواب والرحمة.

ودرج فى كثير من الأحيان على أن تلحق بالمدرسة قبة يدفن فيها الواقف صاحب المدرسة أو يبنى له قبرا فى أحد جوانبها (٦٣)، فالمقريزى فى وصفه للمدرسة الناصرية التى أنشأها الناصر محمد، يذكر «وأنشأ بجوار هذه المدرسة من داخل بابها قبة جليلة... فلما مات ابنه أنوك من الخاتون طغاى فى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وعمره ثمانى عشرة سنة دفنه بهذه القبة وعمل عليها وقفا يختص بها ...»(٦٤).

أما المدرسة الحجازية التى شيدتها خوند تتر الحجازية ابنة الناصر محمد وزوجة الأمير بكتمر الحجازى- فيذكر- المقريزى أنه قد «أنشأت بجوارها قبة من داخلها لتدفن تحتها، ورتبت بشباك هذه القبة عدة قراء يتناوبون قراءة القرآن الكريم ليلاً ونهاراً، وأنشأت بها مناراً عالياً من حجارة ليؤذن عليه»(٦٥). وحين توفيت خوند تتر الحجازية دفنت بهذه القبة فأخذ «يجلس بها عدة من الطواشية، ولايمكنون أحداً من عبور القبة التى فيها قبر خوند الحجازية إلا القراء فقط وقت قراءتهم خاصة»(٦٦).

كذلك يذكر المقريزى عن شمس الدين شاكر بن غزيل المعروف بابن البقرى مؤسس المدرسة البقرية أنه «دفن بمدرسته هذه وقبره بها تحت قبة فى غاية الحسن» (٦٧). بالإضافة إلى ذلك كان بعض الفضلاء المقتدرين يعملون على وقف دروس قرآنية فى التربة طلباً للرحمة والمغفرة(٦٨). وهكذا كان من المستحب دفن صاحب المدرسة أو أبنائه فى المدرسة بعد وفاته . ولعل السبب أنها مكان للدرس، وذكر الله، وتفسير الشريعة الإسلامية، إلى جانب كونها مكان عبادة وتعبد . من ذلك أن الأمير الكبير سيف الدين الجاى دفن فى مدرسته المعروفة باسمه «مدرسة الجاى»(٦٩).

كما دفن السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون فى مدرسة أمه المعروفة باسم مدرسة أم السلطان ، وذلك بعد قتله (٧٠). ودفن الأمير سيف الدين إينال اليوسفى بعد وفاته فى سنة ٧٩٤هـ / ١٣٩٢ م خارج باب النصر، حتى انتهت عمارة مدرسته، مدرسة إينال ، فنقل إليها ودفن فيها(٧١).

ويفهم من كلام المقريزى فى وصفه لهذه المدرسة أن الهدف من بنائها أن تكون مقراً يدفن فيها صاحبها ، حيث يذكر : «ولم يعمل فيها سوى قراء يتناوبون قراءة القرآن على قبره»(٧٢). ولعل الواقف صاحب المدرسة حين يوصى بأن يدفن فى مدرسته يرجو دعاء الشيوخ العلماء والمدرسين والمعيدين والطلبة ترحماً عليه وطلب المغفرة له .

إلى جانب ذلك ضمت معظم هذه المدارس خزانة كتب بها أمهات الكتب فى مختلف العلوم(٧٣). واحتوت بعض المدارس على كتب تكون من جملة الموقوف للتعليم فى هذه المدارس(٧٤)، فالمدرسة الفاضلية وقف بها جملة عظيمة من الكتب فى سائر العلوم، يقال إنها كانت مائة ألف مجلد(٧٥).

أما المدرسة المحمودية التى أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن على الاستادار سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٥م فقد «عمل فيها خزانة كتب لايعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها، وهى باقية إلى اليوم لايخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون فى المدرسة، وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كل فن»(٧٦). وكان من المعتاد أن يعين لخزانة الكتب فى المدرسة مشرفًا يتولى العناية بها والاهتمام بما فيها؛ من كتب ومراقبة الإعارة ففى المدرسة الناصرية مثلا: «شاهداً لخزانة الكتب، يحفظ ما فيها من الكتب، ويضبط ما يؤخذ منها للاشتغال بها، بحيث لا تخرج الكتب من المدرسة ، ويصرف له فى كل شهر ثلاثين درهمًا ، أو ما يقوم مقامها من النقود»(٧٧).

وهذه النظرة السريعة إلى بعض ما أنشئ من مدارس أيام الدولة المملوكية – هى خير دليل على أسباب قيام هذه المؤسسات، والهدف من تأسيسها ، وكيفية قيامها فى تأدية وظائفها ، ولابأس من تركيز هذه الدراسة حول مدارس عصر الناصر محمد بن قلاون، خاصة وأن المصادر المملوكية تكاد تجمع على أن هذا العصر كان يعد بحق العصر الذهبى للعمارة المملوكية، حيث ازدهر بعدد هائل لمختلف أنواع العمائر ، وكان يصرف ببذخ على تشييدها، ويتفانى فى ضخامة بنائها، وجودة زينتها، والإنفاق فى سبيل ذلك بغير حساب.

ونستشهد على ذلك كله بقول ابن حجر العسقلانى فى ترجمته للناصر محمد حيث يقول : «وبنى فى سلطنته من الجوامع والمدارس والخوانق الشيئ الكثير جداً»(٧٨).

الهوامش

١- المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٣ .

٢- عن العلاقة بين سلطنة المماليك والسودان الغربى انظر عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص٢٤٢-٢٤٥ (الطبعة الأولى، ١٩٦٥م).

٣- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٥ .

٤- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٥ .

٥- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٩٥١-٩٥٢ .

٦- القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣٦٣-٣٦٤ .

٧- القلقشندى، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣٦٤ .

٨- القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣ ، ص٣٦٢-٣٦٣ .

٩- أبو الفدا ، مختصر ، ج٤ ص١٣٣ ، ابن حجر ، الدرر ، ج٤ ، ص٥٠ ، المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٣-٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ؛ ابن تغرى بردى، المنهل، ج١ ، ص٣٩٢-٣٩٣ .

١٠- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص٤٢ ، ٩٥ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

١١- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٤ .

١٢- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٤ .

١٣- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٤ .

١٤- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٤ ، ٣٧٨ .

١٥- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٦ .

١٦- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٧٤ .

١٧- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٧٤ .

١٨- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٨٢ .

١٩- النويرى ، نهاية ، ج٣٠ ورقة ٣٩٩أ ؛ انظر أيضا المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٩٥١-٩٥٢ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم ، ج٨ ، ص٢٠٨-٢١١ .

٢٠- النويرى ، نهاية ، ج٣٠ ، ورقة ٣٤١ب.

٢١- النويرى ، نهاية ، ج٣٠ ، ورقة ٣٤١أ.

٢٢- المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٣٨٢، انظر أيضا المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٩٥١-٩٥٢ .

٢٣- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٧٦٩ .

٢٤- ابن حجر ، الدرر ، ج١ ، ص٣٩٩ .

٢٥- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٤٠١ .

٢٦- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٤ .

٢٧- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٤ .

٢٨- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٥ .

٢٩- النويرى، نهاية ، ج٣٠ ورقة ٣٤٠ ب.

٣٠- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٦٩ .

٣١- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٨٢ .

٣٢- النويرى ، نهاية ، ج٣٠ ، ورقة ٣٤١ ب- ٣٤٢ .

٣٣- المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص٣٧١ .

٣٤- المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص٣٧٩ .

٣٥- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٤٠٠، ٤٠٢ ، ٤٠٤ .

٣٦- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٣٧٤ ، ٣٩٤ .

٣٧- المقريزى، الخطط، ج٢، ص٣٧٤ .

٣٨- النويرى، نهاية، ج٣٠ ، ورقة ٣٤٠أ .

٣٩- النويرى ، نهاية، ج٣٠ ، ورقة ٣٤٠ أ.

٤٠- النويرى ، نهاية ، ج٣٠، ورقة ٣٣٩أ.

٤١- النويرى، نهاية، ج٣٠، ورقة ٣٣٩ب.

٤٢- النويرى، نهاية، ج٣٠ ، ورقة ٣٣٩ب.

٤٣- النويرى، نهاية ، ج٣٠ ، ورقة ٣٤٠أ.

٤٤- المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٤٠٠ .

٤٥- القلقشندى ، صبح الأعشى، ج١١ ، ص٢٣١ -٢٣٤ ، قارن ص٢٣٦-٢٣٩ ، ٢٣٩-٢٤١ .

٤٦- ابن تغرى بردى ، حوادث ، ورقة ١٢ أ، تبر ، ص٢١٩ .

٤٧- القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٦٤ .

٤٨- القلقشندى، صبح الأعشى، ج١١ ، ص٢٤٧ .

٤٩- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٩ .

٥٠- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٦٩ .

٥١- النويرى، نهاية ، ج٣٠ ، ورقة ٣٤٠ب.

٥٢- المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص٣٧٤ .

٥٣- ابن حجر ، الدرر، ج٥، ص١٧٦ .

٥٤- ابن حجر، الدرر ، ج٥ ، ص١٧٦ ، ابن تغرى بردى، المنهل، ج١، ص٣٩٢-٣٩٣ .

٥٥- ابن العماد، الشذرات، ج٦ ص١٤٢-١٤٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ .

٥٦- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٩٩ .

٥٧- المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٣٩٢ .

٥٨- المقريزى ، الخطط، ج٢ ، ص٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ، ٣٩١، ٣٩٤ .

٥٩- المقريزى ، الخطط، ج٢ ، ص٣٨٢ .

٦٠- المقريزى ، الخطط، ج٢، ص٣٨٢ .

٦١- المقريزى ، الخطط ج٢، ص٤٠١ .

٦٢- ابن حجر، الدرر ، ج٤ ، ص٣٢٣ .

٦٣- المقريزى ، الخطط، ج٢ ، ص٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩١ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ .

٦٤- المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٣٨٢ .

٦٥- المقريزى ، الخطط، ج٢، ص٣٨٢ .

٦٦- المقريزى ، الخطط، ج٢، ص ٣٨٣ .

٦٧- المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص٣٩١ .

٦٨- المقريزى ، الخطط، ج٢، ص١٦٥ .

٦٩- المقريزى ، الخطط، ج٢ ، ص٣٩٩ .

٧٠- المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٤٠٠ .

٧١- المقريزى ، الخطط، ج٢ ، ص٤٠١ .

٧٢- المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٤٠١ .

٧٣- المقـــريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص٣٧١ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢-٣٨٣ ، ٣٨٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ - ٣٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ .

٧٤- المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص٣٦٦ .

٧٥- المقريزى، الخطط، ج٢، ص٣٧٩ .

٧٦- المقريزى ، الخطط، ج٢، ص٣٩٥ .

٧٧- النويرى، نهاية، ج٣٠ ، ورقة ٣٤١أ.

٧٨- ابن حجر ، الدرر، ج٤ ، ص٢٦٤ .

المصادر والمراجع

ابن إياس محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م)

١- بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ٣ أجزاء ، القاهرة، ١٨٩٣-١٨٩٦م.

ابن بطوطة محمد بن عبدالله (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)

٢- تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار «رحلة بن بطوطة»، تحقيق د. على المنتصر الكنانى ، الطبعة الأولى، بيروت ، ١٩٧٥م.

ابن تغرى بردى أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م)

٣- حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، جزءان، تحقيق : ويليام بوبر، لوس أنجلوس، ١٩٣٠-١٩٤٢م.

٤- المنهل الصافى ، والمستوفى بعد الوافى، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٥٦م.

٥- مورد اللطافة فى من ولى السلطنة والخلافة ، بإشراف ، ج.د. كارليل، طبعة أوروبا، ١٧٩٢م.

٦- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٢ جزء، القاهرة، ١٩٢٩-١٩٥٦م.

ابن حبيب : الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)

٧- تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، تحقيق : محمد محمد أمين، مراجعة : سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة، ١٩٧٧م.

ابن حجر : أحمد على (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م)

٨- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ٥ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٦م.

٩- إنباء الغمر فى أبناء العمر، جزءان ، حيدر آباد، ، ١٩٦٧م.

١٠- فتح البارى بشرح صحيح البارى، ١٣ جزء ، القاهرة، ١٣١٩هـ / ١٩٠٩م.

الحجى: حياة ناصر

١١- التعليم فى مصر زمن المماليك، ضمن كتاب: التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات ، الجزء الثالث، ١٩٩٠م، مؤسسة آل البيت، المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية، الأردن.

١٢- أسواق القاهرة فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، ضمن كتاب ، بحوث ودراسات فى التاريخ العربى، مهداة إلى أ.د. نور الدين حاطوم بمناسبة بلوغه السبعين من عمره، دار شمال للطباعة والنشر دمشق، ١٩٩٢م.

١٣- العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الأسبانية فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين (حائز على جائزة معرض الكتاب المقدمة من مؤسسة الكويت للتقدم العلمى عام ١٩٨١م).

١٤- السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف فى عهده مع تحقيق ونشر وثيقة وقف سرياقوس، الكويت، ١٩٨٢م.

١٥- السياسة الصليبية للملك القديس لويس التاسع، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٨٤م.

١٦- أحوال العامة فى حكم المماليك ٦٨٧-٧٨٤ هـ / ١٢٧٩-١٣٨٢م دراسة فى الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ، الكويت، ١٩٨٤م، والطبعة الثانية فى عام ١٩٩٤م.

١٧- دراسات فى تاريخ سلطنة المماليك فى مصر والشام، الطبعة الأولى، الكويت ، ١٩٨٦م.

١٨- صور من الحضارة العربية الإسلامية فى سلطنة المماليك، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٩٢م.

١٩- أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى سلطنة المماليك فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، الطبعة الأولى، منشورات جامعة الكويت، ١٩٩٥م.

٢٠- صفحات من تاريخ الكويت فى ظل الاحتلال العراقى أغسطس ١٩٩٠- فبراير ١٩٩١م (دراسة وثائقية تاريخية) ، الطبعة الأولى، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، الكويت، ١٩٩٥م.

الدوادارى : أبوبكر بن عبدالله بن أيبك (معاصر للناصر محمد بن قلاوون)

٢١- كنز الدرر وجامع الغرر، ج٨ الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية، تحقيق: و. هاريمان، القاهرة ، ١٩٧١م.

٢٢- كنز الدرر وجامع الغرر، ج٩ الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، تحقيق: هـ. ر. روبمر، القاهرة ، ١٩٦٠م.

الذهبى شمس الدين محمد بن أحمد الشافعى (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) .

٢٣- العبر فى خبر من غبر ، ٥ أجزاء ، الكويت (١٩٦٠- ١٩٦٦م).

٢٤- خلاصة تهذيب الكامل فى أسماء الرجال، تحقيق : أ.أ الخزرجى ، القاهرة ، ١٣٢٢هـ / ١٩٠٤م.

٢٥- كتاب دول الإسلام، جزآن ، حيدر آباد، ١٣٣٧ هـ / ١٩١٨م.

زيتير شتين

٢٦- تاريخ سلاطين المماليك ، نشرة كارل ف ، زيتير شتين ليدن، ١٩١٩م.

السبكي : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب (ت ٧٧١هـ / ١٣٧٠م) .

٢٧- معيد النعم ومبيد النقم ، الطبعة الأولى، بيروت ، ١٩٨٣م.

السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)

٢٨- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزءا، القاهرة، ١٣٥٣- ١٣٥٥هـ / ١٩٣٤-١٩٣٦م.

٢٩- التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، القاهرة، ١٨٩٦م.

السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) .

٣٠- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، جزءان ، تحقيق : م . أ . إبراهيم ، القاهر، ١٩٦٧-١٩٦٨م.

٣١- تاريخ الخلفاء ، تحقيق :م.م . عبد الحميد، القاهرة ، ١٩٦٤ م.

ابن شاكر محمد بن أحمد الكتبى (ت ٧٦٤هـ / ١٣٩٣م).

٣٢- عيون التواريخ، الجزءان، ٢٠، ٢١ ، تحقيق : فيصل السامر، نبيلة عبد المنعم داود، الطبعة الأولى، بغداد ، ١٩٨٤م.

عاشور : سعيد عبد الفتاح :

٣٣- العصر المملوكى فى مصر والشام، القاهرة، ١٩٦٥م.

٣٤- مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

٣٥- مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى، القاهرة، ١٩٧٠م.

٣٦- المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٦٢م.

ابن عبد الظاهر : محيى الدين أبو الفضل عبدالله (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م)

٣٧- تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق: م. كامل، القاهرة، ١٩٦١م.

٣٨- الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق : عبد العزيز الخويطر، الرياض .

٣٩- الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية، ليبزج ، ١٩٠٢م.

أبو الفدا : إسماعيل بن على (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)

٤٠- المختصر فى أخبار البشر ، ٤ أجزاء ، القاهرة، ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م.

٤١- تقويم البلدان ، تحقيق :م . رينود ، م. سلان، باريس ، ١٨٤٠م.

ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م)

٤٢- تاريخ الدول والملوك ، جزء ٨ ، تحقيق : قسطنطين زريق وآخرون، بيروت، ١٩٣٩م.

ابن أبى الفضائل : مفضل

٤٣- النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، ج٢، ٣، تحقيق: أ. بلوشيه ، باريس ١٩٢٨م.

القلقشندى: أحمد بن على (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)

٤٤- مآثر الأناقة فى معالم الخلافة ، ٣ أجزاء ، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الكويت، ١٩٦٤ م.

٤٥- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤ جزء، القاهرة ١٩١٣-١٩٢٢م.

المقريزى : أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م)

٤٦- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق:م . عابدين، القاهرة، ١٩٦١م.

٤٧- إغاثة الأمة بكشف الغمة، حمص ، ١٩٥٦م.

٤٨- الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، القاهرة، ١٨٩٥م.

٤٩- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار «الخطط المقريزية» ، جزءان، القاهرة، ١٨٥٣م.

٥٠- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ٢، تحقيق : محمد مصطفى زيادة ، ج٣،٤ ، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة، ١٩٣٩-١٩٧١م.

النويرى : أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)

٥١- نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ٣٠ جزء ، تحقيق : د. محمد عبد الهادى شعيرة، د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٢٣-١٩٩٠م.

مخطوط، دار الكتب المصرية، ٥٤٩ معارف عامة، الأجزاد ٢٦-٣٠ .